

صنع الله إبراهيم : التجريب الروائي العربي المعاصر نجد

حاوره: فراس عبيد *

في مطالع التسعينيات، كنت أفتش عن ظاهرة روائية عربية كي أدرسها دراسة مستقصية، وأнал عليها درجة الماجستير، ولم يطل بي البحث حتى اهتديت إلى رواية صنع الله إبراهيم، وتولدت لدي إيهاءات قوية بأنه يمكنني العثور على فهم محكم للتركيب العربية بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - وأنا طالب العلم - في نصوص هذا الروائي المتميز، كما يمكنني تحليل الجانب الفني في نصوصه .

وإذا كانت كل روايات صنع الله إبراهيم: « تلك الرائحة » و « نجمة أغسطس » و « اللجنة » و « بيروت . . بيروت » و « شرف » و « وردة » تحمل أشكالاً ورؤى تجريبية مبدعة وعميقة وصادقة، في رواية « ذات » وبشكل صارم مأساوي نجح في فجع الوعي العربي وكشفه لذاته أمام مرآة العجز التاريخي، ليس لتفوق رواية « ذات » شكلاً أو رؤية على الروايات الأخرى، بل لأن العجز التاريخي العربي كان وصل إلى أزمته القصوى مع بداية التسعينيات! (تاريخ صدور رواية « ذات »)، حيث تمكن الروائي المبدع من إخراج ذلك العجز في حيّزه الروائي .

* اقترنت روايات صنع الله إبراهيم بتقنية السرد متعدد المستويات حتى صارت هذه التقنية ملمحاً فنياً وشكلياً في جميع أعمالك، فهل كانت فكرة السرد، ذي المستويات المتعددة، ابتكاراً لك أم إفادة من تقنيات الرواية الحديثة في الغرب، وبخاصة تقنيات الرواية الجديدة في فرنسا أوائل الستينيات؟

- الإثنان معاً، فالكاتب يستفيد من كل ما يقرأ، كما أنني أغرمت منذ مراهقتي بعمل أرشيف للأغاني والصور والصحف، ومن الطبيعي أن يخطر ببالي أن أستغل هذه الإمكانية أو الهواية المستمرة معي إلى الآن . . خذ «نجمة أغسطس» مثلاً فقد كتبتها في فترة سيطرت فيها على جيلي الروائي رغبة التجريب في شكل الرواية، فاحتفظت بخرائط للسرد العالي، وتصورت شكل السرد العالي معمارياً، ثم حاولت استخراج لغة الرواية وشكلها بالمماثلة مع السد: جسم السد الهندسي مكون من ثلاثة أجزاء، وكل جزء من الأجزاء الثلاثة مكون بدوره من عدة أجزاء وآلات ومواد، وجدت إيقاعاً في تكوين السد، فكانت هناك لغة لتكوين السد الرئيس، ولغات أخرى لأجزاء أخرى من السد، منها الرومانسية، ومنها العملية، ومنها المنولوجية . . وهذه الفكرة جاءتني وأنا في السجن، حيث ترجم لي أحد الأصدقاء جزءاً من رواية «يوليسيس» التي كانت مقسمة إلى فصول طبقاً لأحياء «دبلن» وأجزاء الجسم البشري . . ربما كانت فكرة «النجمة» تفصيلاً للرواية على جسم الموضوع، ربما ارتبطت بقراءة «يوليسيس» . . لكنني راضٍ عن شكل «النجمة» التي أحسّ - رغم الرضى عن الشكل -

بإثارتها الملل بهذا القدر أو ذلك، وأنا لا أحب الإحساس بالملل عند قراءة شيء أو عندما يقرأ لي أحد .

* احتلت الوثيقة مساحة أساسية في روايات صنع الله إبراهيم إلى الحد الذي جعلها هي الأخرى ملمحاً فنياً وشكلياً في هذه الروايات، فهل تشاطرنني الرأي في أنك توظف الوثيقة، لأنها تمتلك قوة إثبات غير عادية من شأنها أن تولد وعياً حديداً مقترناً بانفعال مأساوي عال، كما هي الحال في روايات «اللجنة» و«بيروت . . بيروت» و«ذات» و«شرف»؟

- نعم، أنا متفق معك تماماً، وأضيف: هناك عنصر شخصي أو غرام خاص بالوثيقة مني! جميعنا متفق على أن إسرائيل حركة عدوانية استعمارية استيطانية . . لكن إذا وجدنا في مذكرات أحد الصهاينة الأوائل تقريراً بهذا الاتجاه، أو قرأنا إحصائية للقوى أو الأماكن التي تم تهويدها، أو رأينا صورة لخريطة الكنيسة الموجودة حتى اليوم وهي ترسم إسرائيل الكبرى الممتدة من النيل إلى الفرات . . فمن المؤكد أن هذه الوثائق أكثر برهاناً ودعماً من الكلام ذي الطابع العمومي .

* منذ أول عمل روائي لك: «تلك الرائحة»، حتى آخر عمل «وردة»، سادت لغة سردية دقيقة، مركزة، وعلمية إلى حد كبير، فما هي الرؤية الكامنة وراء هذا الاستخدام للغة؟

- هذه اللغة وجدت منذ زمن الجاحظ والجرجاني اللذين تكلمنا عن مطابقة اللفظ للمعنى، وعن «السهل الممتنع»، وهذا هو مفهوم البلاغة ذاته، وهو المفهوم الذي ساد في فترات ازدهارنا الحضاري، والعكس صحيح، أي أن الأدب العربي توصل إلى هذا المفهوم للغة قبل قرون من «أرنست هيمنجواي» الذي ارتبطت هذه اللغة باسمه في العصر الحديث، ولا أنكر تأثري بأدوات «هيمنجواي» اللغوية «أن يكون النشر واقعياً، محدداً للغاية، ذا أبعاد متعددة . ألا أكتب إلا عما أعرفه جيداً، التركيز والاعتماد على الإيحاءات والترابطة الداخلية، ولكن ليس برؤيته للنشر، وحذف كل ما هو زائد، أي كل ما يمكن الاستغناء عنه» ولكن ليس برؤيته، كما أن هذه اللغة هي بنت الصحافة الجيدة، المعتمدة

على البرقية المركزة، والتي تجيب بأقل عدد كلمات عن أسئلة جوهرية . . يتكرر عندي - على سبيل المثال - جملة مثل «دخلت وجلست وأشعلت سيجارة»، هذه اللغة تبرز جزءاً من جبل الثلج أو من الأبعاد المختلفة للنص، وقد دعا الأديب يحيى حقي دائماً إلى هذه اللغة .

* المشروع الروائي المعاصر، كيف يراه صنع الله إبراهيم بعد أكثر من نصف قرن على ظهوره؟

- يوجد الآن ما يمكن تسميته «رواية»، إذ أصبح لهذا الجنس الأدبي «الرواية» وجود فعال في الواقع الثقافي العربي، لوجود كتاب جيدين وقراء يبحثون عن هذا الجنس، ويتطلعون إلى إجابات ما، أو إلى صياغات لأسئلة من أنواع مختلفة . ويمكن القول: إن إبداعاتنا الروائية أصبحت في مستوى يقترب كثيراً من مستوى الرواية العالمية، وإن العقبة الوحيدة أمام إبداعاتنا الروائية الآن هي المحرمات التي تفرضها الأوضاع السياسية والاجتماعية في بلادنا . . تخيل أن يكتب روائي عربي رواية مثل «حفلة التيس» لليوسا التي تفضح دكتاتوراً معروفاً في الستينيات هو تروجلو، فيما يمكن أن يكتب عبد الرحمن منيف «شرق المتوسط» مجهلة، لا مكان ولا زمان، وعن الضحية لا عن الجلاد .

* كلامك السابق سيقودنا إلى الحديث عن خصائص تاريخية - موضوعية - فنية للرواية العربية، فما هي هذه الخصائص من رواية الرؤية الخاصة بالروائي العربي صنع الله إبراهيم؟

- هناك خاصية أساسية لها هي عجزها عن الخوض في المسائل الجوهرية للحياة، مثل تفاصيل الحياة الجنسية أو تعريض المقدسات للفتازيا والسخرية إلى غير ذلك . .

ومن ناحية أخرى، بسبب الظروف الاستعمارية التي مر بها الوطن العربي والمواجهات المستمرة مع الأعداء والقضية الفلسطينية . . فإن الموضوع السياسي يمثل بشكل أو بآخر مركز الصدارة في الرواية العربية، فيميزها ويميز كتابها الذين

بدءاً من الطاهر وطار ورشيد بو جدرة في الجزائر إلى الكونني والفيقيه في ليبيا، وإلياس خوري في لبنان، ودمّاح في اليمن . . .

* ما العلاقة بين التجريب العربي والتجريب الغربي؟

- هناك تأثيرات طبيعية متبادلة بين الآداب، ولكنها ليست اتباعية، فكثير من كتاب أميركا اللاتينية من هو متأثر بالآدب العربي القديم، مثل «بورخيس» .

* هل ترى التجريب اليوم ضرورة للعمل الروائي؟

- لا، ليس شرطاً، فالتجريب هو محاولة استكشاف طريق جديدة، والمحاولة قد تنجح وقد تفشل، لكنها تضيف إلى كتلة الإنتاج الروائي، وبعد عدة محاولات يتكوّن أمامنا شكل تقليدي بسبب حدوثه المتكرّر، وما لا أميل إليه أنا شخصياً هو المغالاة في التجريب، فأنا أحب أن أتواصل مع قارئ اليوم ولا يعنيني القارئ بعد 50 سنة .

* عرّف الكتابة؟

- هي محاولة للتعبير عن النفس، وكلما كان هذا التعبير صادقاً وصل إلى درجة الرفض لما هو قائم، وأظن أن هذا شرط رئيس لجودة أو نجاح العملية الإبداعية التي تقوم في صلبها على الرفض !

* والحدّثة؟

- كلمة / مصطلح أقحم علينا كبديل غامض لكلمات محددة سبق أن استرشدنا بها، مثل التقدم والواقعية والثورة .

* ما هي روايتك أو رواياتك التي رضيت عنها؟

- ولا واحدة . . «يلفظ ذلك ببراءة» .

ينغمس غالبيتهم في خضم الحياة اليومية بعيداً عن أسر الفانتازيات التجريدية، وهذه الخاصية «الانغماس بالهم السياسي» إيجابية، وهي التي يعيها النقاد الأجانب «معظمهم مستشرقون» على الأدب العربي لغاية هي تكريس هيمنتهم السياسية علينا، ويظالبوننا في المقابل بالحديث عن قيم مطلقة كالحب والجشع . .

فأردّ عليهم: إن استغلال دولة لدولة هو قيمة مطلقة، أيضاً! وفي «وردة» نموذج لهذا الحوار .

* المقارنة في هذا السياق تبدو مغوية، فما هي خصائص الرواية الغربية والأمريكية، من زاوية رؤية الروائي والقارئ الروائي صنع الله إبراهيم، المعروف بإطلاعه الوافر على الرواية العالمية؟

- باختصار . . حرية اختراق الموضوعات، التجريب، وهذا يساعد الإنسان . . لكن من ناحية أخرى يسيطر على هذه الرواية اتجاه نحو التسطيح والغرق في أجواء وموضوعات بعيدة عن الحياة الحقيقية للبشر .

* التجريب ليس خاصية للرواية الغربية فقط، بل هو من أخص خصائص الرواية العربية المعاصرة، وتحضرنى كلمات الناقد د. إبراهيم السعافين: «الرواية الغربية والعربية كلتاهما شكل غير مُنجز وكلتاهما يجرب، وجماداة التجريب تكمن في قيمته وفي طبيعته وفي استجابته لحاجات فنية جوهرية»، فهل نجح التجريب العربي؟

- التجريب العربي نجح، فليس هناك نموذج للرواية العربية، كما أن نجيب محفوظ أبو الرواية العربية لم يكتب وفقاً لنموذج جاهز، بل كان يسعى دائماً إلى اختراق منطقة جديدة في الشكل في كل عمل من أعماله، فهو الرائد، وهو التجريبي الأول في الرواية العربية، وهذا هو سرّ حيويته .

وفعل الكتاب الآخرون الشيء ذاته، ولهذا لا نجد بين الإبداعات المتميزة على المستوى العربي ما يمثل اتباعاً لنموذج محدد، بل ما يمثل تجربة متفردة في التعبير يراها الكاتب نفسه

* أوصلتني دراستي لروايتك «نجمة أغسطس» إلى اعتبارها علامة فارقة في الرواية العربية المعاصرة، سواء في تجربتها الشكلية، أو رسالتها المعرفية «نفي اجتماع التنمية والسجن السياسي معاً في مشروع وطني» أو في تصنيفها كرواية علاقات فكرية مباشرة بامتياز، لكن دور / وظيفة عنصر الفراغ، في الرواية لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية؟

- لم تكن هذه المسألة «الفراغ» واضحة في ذهني من ناحية ردّ جذور الاستبداد المعاصر في مصر إلى التاريخ الفرعوني، بل كان واضحاً في ذهني تقسيم الرواية بناء على الشكل والسد ووجود الفراغ كظاهر، وبعد سنوات توصلت إلى خاصية مشتركة بين مصر والمجتمعات النهرية المعتمدة على النهر والري والزراعة «مصدر الحياة»، هي السلطة المركزية المنظمة لعملية الري . . فأحد ألقاب الفرعون مهندس المياه، والمركزة في جهة واحدة في عاصمة يمكن أن تفرز الاستبداد.

* روايتك «ذات»، تناولت الأزمة الاجتماعية الشاملة التي تعاني منها مصر المعاصرة منظوراً إليها من جوانب: الطبقة، ثقافة المجتمع، وممارسات الدولة، ونظم الشكل الروائي «ذات» دورين يتصارعان بلا رحمة على الأرض المصرية والدولة الوطنية التي تعيق النمو الشامل للمجتمع المدني، على الرغم من أنها الطرف الأقوى في قدرته على تحقيق إنجاز تاريخي لصالح النهضة والحداثة، ومن جهة ثانية يرى الناقد فيصل درّاج، في كتاب صدر له مؤخراً، روايتك «ذات» أهم رواية تجريبية صدرت في نصف القرن الأخير في العالم العربي . . صنع الله إبراهيم، من هي «ذات» التي خلقتها؟

- أشكرك على هذا الرأي في الرواية . . الحقيقة أنني كنت أريد عمل تجربة في خلق أسطورة معاصرة، فتخيلت امرأة تقود مجموعة من المتمردين على الوضع القائم في مصر والعالم العربي، وأعطيت هذه التجربة عنوان «عودة الأميرة ذات الهمة»، وأثناء الكتابة وجدت صعوبة في الاستمرار بخلق واقع مواز فبدأت الشخصية تتحول إلى امرأة عادية من الطبقة الوسطى في مصر، ولم يعد لها علاقة بالأسطورة والتبرّد، سميتها «ذات» مُجهّلة، وكان اسمها أصلاً ذات

الهمة . . لكنني عوّضت جزءاً من حلمي في ذات في رواية «وردة»، إذ عثرت على شخصية المرأة القيادية . . أعود إلى شخصية «ذات» وأقول إنها ألحت عليّ فرسمتها وهي رسّمت من ثمّ الطبقة الوسطى . . وقد اخترت المرأة لتحملها أعباء أكثر من الرجل في جميع المجتمعات، ولأنها تعيش في الدرجة الثانية في جميع المجتمعات، حيث يسيطر الرجل بدرجات متفاوتة، ولأنني وجدتها تمثل قاعدة البيت والأسرة والمجتمع وقاعدة كل شيء، وهي من يلمّ بمجموع الأحداث والمحاور .

* ما هي نظرة المثقف والروائي صنع الله إبراهيم إلى ما يجري للمشروعين الوطني والقومي في العالم العربي اليوم من إضعاف؟ أو ما يُسمى بالعمولة؟

- ما يجري على الساحتين المصرية والعربية الآن هو الفصل الأخير من عملية تهجين المنطقة لصالح الشركات العالمية، وهي عملية بدأت سنة 1976، ولكن لحسن حظنا أن هذا الوضع ليس مقتصرًا علينا، بل يشمل قارات كاملة، مثل أمريكا اللاتينية وشرق آسيا وإفريقيا، ويقدر هذا الاتساع للمأساة ينمو أمل يمدنا بالإصرار، ففضاء المأساة الكونية يتسع باتجاه مواجهة قادمة بالتأكيد، هذا هو مفهوم العمولة: شركات وسيطرة ومواجهة على نطاق العالم . . والجبهة الثقافية جزء من جبهات المواجهة .

* صنع الله إبراهيم كيف تتخلص من الإحباطات الصغيرة والكبيرة التي تصادفك وتواجهك؟

- بعملية الكتابة، وبأي ردّ فعل من القارئ .

* بيتك صغير جداً ومحتوياته بالغة التواضع والتعقّف، كيف تعاش؟!

- لا أعمل في أية مؤسسة أو هيئة تابعة للدولة، وأعيش من الكتابة للأطفال، احتياجاتي محدودة، يأتيني دخل من رواياتي المترجمة . . وأعيش ضمن الحد الأدنى .

السلبى : المعاناة لسنوات طويلة على صُعد العلاقة مع الآخرين، والمرأة، والسلطة .

* في وجهك ملامح الباحث عن الإثارة والتحري السري؟
فهل صدقتني فراستي؟

- نعم، فمن شبابي إلى اليوم وأنا أقرأ وأبحث في كواليس السياسة والاقتصاد والجنس، مدفوعاً برغبة عفوية، كما أنني أقرأ يومياً وطوال عمري رواية بوليسية أجنبية مثل «جون ليكاريه» قبل النوم للخروج من الجو العادي والصارم، وأجد في ذلك توازني ومتعتي .

* كاتب فلسطيني يقوم في رام الله .

* عُرِفَت رمزاً من رموز اليسار والشيوعيين المصريين في الخمسينيات والستينيات، واعتقلت خمس سنوات . اليوم، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، أين تقف أيديولوجياً؟
- كنت شيوعياً، وما زلت . أو من بضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة وعدم التمييز بين الطبقات أو الأفراد أو الشعوب . . هذه المبادئ يدعمها منهج في التفكير لدي يستند إلى الماركسية . . ومعنى ذلك أنه لا توجد نظرية جامدة أو نموذج محدد للتوصيف الاجتماعي، بل ثمة قابلية للتفاعل مع كافة التطورات والأفكار .

* لماذا لم تكتب القصة القصيرة؟

- كتبت القليل، ولكن كلما كتبت وجدت الموضوع اشتبك مع موضوع آخر وتوسع، كما أن كتابة القصة القصيرة عملية صعبة أكثر من كتابة الرواية، لأن الحيز صغير وأنت مضطر للدخول في منافسة مع ملايين القصص التي كتبت على مر التاريخ، ولانكشاف أي ضعف في أدواتك .

* ما هو الحقيقي في الحياة؟

- لا أدري .

* احتل الجنس في أعمالك موقِعاً واضحاً، كيف تُعرّف الجنس؟

- هو أهم جانب من السلوك الإنساني، وهو المسيطر على الحياة الإنسانية، وسعادة البشر تشمل الأمان المتمثل في لقمة العيش والمتعة الجسدية من خلال الجنس .

* في الفترة بين 1959 - 1964 كنت سجيناً سياسياً في مصر، ما أثر تلك التجربة فيك، سلباً وإيجاباً؟

- الإيجابي : النضج والاحتكاك بخلفيات بشرية لم يكن ممكناً في الحياة العادية، والاحتكاك المباشر بالعملية السياسية في كافة جوانبها، والتثقيف والقراءة والتأمل .